

## الباب الثامن عشر

### فردوس الآلهة

لم تبلغ العقيدة الدينية من القوة أو الأهمية في أى قطر من أقطار الأرض ما بلغته في الهند ؛ فلئن أباح الهنود لحكومات أجنبية أن تقوم عليهم مرة بعد مرة ، فبعض السبب في ذلك هو أنهم لم يأبهوا كثيراً من ذا عسى أن يحكمهم أو أن يستغلهم - فسواء أكان هؤلاء من بنى وطنهم أم من الأجانب - ذلك لأن الأمر الخطير في رأيهم هو الدين ، لا السياسة ؛ الروح لا البدن ، هو الحيوات الآتية التى لا نهاية لعددتها ، لا هذه الحياة العابرة ؛ وإن قوة الدين وتمكنها من أقوى الرجال بأساً لتظهر جليلة في اصطناع « أشوكا » حياة القديسين ، وفي إقبال « أكبر » على الديانة الهندية إقبالا كاد يكون تاماً ؛ وها نحن أولاء في عصرنا هذا نرى أن من وَّحد أجزاء الهند أمة واحدة رجل أقرب إلى القديسين منه إلى رجال السياسة .

## الفصل الأول

### الشرط الثاني من تاريخ البوذية

البوذية في أوجها - البلاغان - « ماهايانا » - البوذية  
والرواقية والمسيحية - تدهور البوذية - انتشارها في سيلان  
وبورما ، وتركستان ، وتبت ، وكبوديا ، والصين ، واليابان

بلغت البوذية أوج رفعتها في الهند بعد موت « أشوكا » بمائتي عام ؛ وقد كانت الفترة التي ارتفعت فيها البوذية من « أشوكا » إلى « هارشا » فترة صعود بمعان كثيرة ، صعود في الدين والتعليم والفن : غير أن البوذية التي سادت لم تكن بوذية بوذا ؛ والأقرب إلى الصواب أن نقول في وصفها إنها بوذية تلميذه الثائر « شجاذا » الذي قال للرهبان عند سماعه بموت أستاذه : « كفى ياسادة ! كفوا عن البكاء ، هذا يجدر بكم وهذا لا يجدر ، أما الآن في مقدورنا أن نصنع ما شاء لنا هوانا ، وأما ما لا يصادف من نفوسنا هوى ، فلن يلزمنا أحد على أدائه » (١) .

وأول ما أوحى لهم حريتهم أن يصنعوه هو أن ينشقوا أحزاباً ؛ فلم يمتص على موت بوذا قرن من الزمان ، حتى انقسم تراثه ثمانية عشر مذهباً متبايناً فأما أتباع البوذية في جنوب الهند وجزيرة سيلان ، فقد استمسكوا حينئذ بمذهب صاحب العقيدة في بساطته وصفائه ؛ وقد أطلق على هذه الشعبة من مذهبه فيما بعد اسم « هنايانا » ومعناها « اللبلاغ الأصغر » ؛ فقد عبدوا بوذا باعتباره معلماً عظيماً ، لا إلهاً ؛ وكان كتابهم المقدس هو النصوص المكتوبة باللغة « الهاليتية » التي تبسط العقيدة في صورتها القديمة ؛ وأما في الأرجاء الشمالية من الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ، فالبوذية التي سادت هي التي يطلق عليها اسم « ماهايانا » ومعناها « اللبلاغ الأكبر » الذي رسم حدوده ونشر

دعوته « مجلس كاتشسكا » ؛ فأعضاء هذا المجلس ، وهم من اللاهوتيين الموهوبين ( من الوجهة السياسية ) قد أعلنوا ألوهية بوذا وأحاطوه بالملائكة والقديسين ، واصطنعوا تقشف « اليوجا » الذى عُرِف فى « باتانجالى » وأصبروا باللغة السنسكريتية مجموعة جديدة من المراسيم المقدسة التى على الرغم من قبولها بعد حين قصر للشقشقة الميتافيزيقية والاسكولائية إلا أنها قد أعلنت وأبدت عقيدة دينية أقرب إلى نفوس الناس من الصورة السوداء المتشائمة المنزومة التى عُرِفَت فى « شاكيا مونى » .

كأن مذهب « ماهايانا » بوذية خففت من حدتها آلهة وطقوس وأساطير برهمية ، ولاءت بين نفسها وبين حاجات قبائل التتار فى « كوش » والمنغول فى التبت ، الذين بسط عليهم « كاتشكا » سلطانه ، فقد صور ذلك المذهب جنة فيها بوذيون كثيرون ، كان أحبهم إلى عامة الناس « أميدا بوذا » المخلص ؛ وهذه الجنة وجههم التى تقابلها كانتا ثواباً أو عقاباً لما يأتيه الناس على هذه الأرض من خير أو شر ، وهذان العاملان الوداعان كان لهما أثر فى تحويل بعض جنود الملك من رقابة سلوك الناس إلى خدمات أخرى ؛ وأعظم القديسين فى هذا اللاهوت الجديد هى فئة « بوذا بساتوا » ومعناها « بوذا المستقبل » الذين امتنعوا باختيارهم عن القيام بالترقانا ( ومعناها هنا التخلص من العودة إلى ولادة جديدة ) التى كانت من حقهم وفى مقدورهم ، وذلك لكى يولدوا فى حياة بعد حياة ، فيساعدوا غيرهم من الناس فى هذه الدنيا فى الاهتداء إلى سواء السبيل (\*) وهؤلاء القديسون — مثلهم مثل نظائرهم فى مسيحية البحر الأبيض المتوسط — سرعان ما ظفروا بحب الناس لهم حتى كان عبادهم والمعجبون بهم من رجال الفن يزحمون بهم وبمآثيلهم مدافن العظام ؛ وازدهرت فى البوذية كما ازدهرت فى مسيحية العصور الوسطى — بل لعلها ظهرت فى

(١) فى كتاب من « البورانا » أسطورة نموذجية عن ملك كان جديراً بالجنة لكنه آثر البقاء فى جهنم ليواسى المعدمين ، وأبى أن يفادها حتى أطلق سراح المعصوب عاجم جميعاً (٢) .

البوذية في تاريخ أسبق (\*) - قدسية الآثار الباقية من السلف ، واستخدام الماء المقدس ،  
والشموع ، والبخور والمسبحة ، والثياب الكهنوتية ، ولغة الكهنوت الميتة ،  
والرهبان والراهبات وقص الشعر والفردية مما تقتضيه حياة الأديرة والاعتراف  
والصيام أياماً معينة ، وتدشين القديسين والتطهير والصلاة والدعاء للموتى :  
واقدم أصبح كتاب « ماهايانا » بالقياس إلى « هثايانا » أى البوذية الأولى ما كانت  
الكاثوليكية بالنسبة إلى الرواقية والمسيحية الأولى ، فقد أخطأ بوذا - كما أخطأ  
لموثر - في ظنه أن شعائر الطقوس الدينية العلمية يمكن أن تحمل محلها المواعظ  
والدروس الأخلاقية ، وما أقرب الشبه بين نجاح البوذية حين امتلأت  
بالأساطير والمعجزات والاحتفالات والقديسين الذين يتوسطون بين الأرض  
والسماه بالنجاح الذى لقيته الكاثوليكية قديماً وحاضراً ، لما فيها من زخرف  
وتمثيل ، وانتصارها على المسيحية الأولى والبروتستنتية الحديثة فى بساطتها  
الحالية من كل زخرف..

وليثار عامة الناس لتعدد الآلهة والمعجزات والأساطير ، هذا الإيثار  
نفسه للذى قضى على بوذية بوذا ، قضى كذلك فى نهاية الأمر على بوذية  
« البلاغ الأكبر » نفسها فى الهند ، ذلك لأن البوذية - ودعنا ها هنا نتحدث  
بِحكمة المؤرخ التى تشرق بعد فوات الحوادث - إذا كانت لا تأخذ كل هذا  
الذى أخذته من الديانة الهندية ومن أساطيرها وطقوسها وآلهتها ، فما كان يعضى  
طويل وقت قبل أن تتمحى الفوارق بين الديانتين ولا يبقى من مميزات الواحدة  
من الأخرى إلا قليل جداً قليل ؛ وإذن تتمص لإحداهما الأخرى شيئاً فشيئاً ،  
والذى يتاح لها أن تظغى على الأخرى هى التى تكون أعمق الديانتين جذوراً

(\*) يقول برجسون : « كانت البوذية أسبق من الكتيبة الرومانية بخمسة قرون فى ابتكار  
واصطناع الحفلات والمراسم المشتركة بين الديانتين » (٣) وقد بين « إدمندز » بالتفصيل ما بين  
كتب البوذية المقدسة والإنجيل المسيحية من شبه عجيب (٤) ، ولمع ذلك ، فعلمنا بنشأة هذه العادات  
والعقائد يبلغ من الإبهام حداً لا يميز لنا أن نصل إلى نتائج إيجابية فيما يختص بأسبقية فريق على فريق.

وأقربهما إلى نفوس للناس وأكثرهما مالا وأعزهما سنداً سياسياً ؛ لهذا أخذت الخرافة - ولعلها أن تكون من جنسنا البشرى بمثابة دماء الحياة - أخذت تتدفق من العقيدة الأقدم إلى العقيدة الأحدث تدفقاً سريعاً ، حتى رأينا الظواهر الجنسية الانفعالية نفسها التي كانت من طقوس العقائد « الشاكتية » تلتبس لنفسها مكاناً في طقوس البوذية ، واستعاد البراهمة في صبر ودأب نفرذهم ورعاية السلطان لهم شيئاً فشيئاً ، وأخيراً جاء نجاح الفيلسوف الشاب « شانكارا » في استعادة الكلمة العليا لكتب الفيدا ، وجعلها أساساً للتفكير الهندي ، بمثابة الخاتمة لزعامة البوذيين العقلية في الهند .

وجاءت الضربة القاضية من خارج ، وكانت البوذية نفسها هي التي هيأت لهذه الضربة سبيلها ، على وجه من الوجوه ، ذلك أن حسن السمعة التي كان يتمتع بها أتباع بوذا ، واسمهم « سانفا » ، قد اجتذب إلى تلك الفئة - بعد عهد أشوكا - صفوفه أهل « مجازا » وهذا قضى على خيرة دماء اللقوم أن تنفى في طائفة من رجال الدين لا تزوج ولا يجاهد في الحياة ، فشكا بعض المحبين لوطنهم ، حتى في أيام بوذا نفسه ، من أن الراهب « جوتاما » لا يسمح للآباء أن ينسلوا الأبناء ، ويؤدى بالأسر إلى الانقراض (٥) ؛ وكان من نتائج انتشار البوذية ونظام الأديرة في السنة الأولى من التاريخ المسيحي ، أن امتصت من الهند عصارة الرجولة ، وتآمر ذلك العامل مع عامل الانقسام فأدى العاملان إلى فتح أبواب الهند للغزو الخارجي بغير عناء ؛ ولما جاء العرب وأخذوا على أنفسهم أن ينشروا وحدانية بسيطة رواقية النزعة ، نظروا في ازدراء إلى الرهبان البوذيين الكسالى الذين يفتحون أيديهم للرشوة ويتجبرون بالمعجزات ، وحطموا الأديرة وقتلوا ألوف الرهبان ، وتنفروا كل حريص على حياته من نظام الرهبنة في الدير ، فأما من أفلتوا من يد القتل من هؤلاء الرهبان ، فقد عادوا واندمجوا في الديانة الهندية التي كانت الأرومة الأوى

لهم ؛ وفتحت هذه الديانة القديمة الأصيلة صدرها تستقبل هؤلاء الزنادقة التائبين ،  
وهكذا « قتلت البرهمية البوذية بضممة أخوية » (٦) .

ولا عجب فقد كانت البرهمية دائماً متسامحة ، تجادل البوذية وغيرها من  
مئات المذاهب إبان ارتفاعها وسقوطها ، بل قد تطيل معها الجدال ، لكنك  
لن تجد في تاريخها كله مثلاً واحداً للاضطهاد ؛ بل الأمر على نقيض ذلك ،  
إذ ترى البرهمية قد يسّرت سبيل العودة لهؤلاء الخارجين عليها بأن اعترفت  
ببوذا لها ( اعتبرته مجسداً للإله فشنو ) وأقلعت عن التضحية بالحيوان ،  
وقبلت في صميم طقوسها مذهب البوذيين في تقديس حياة الحيوان بأسره ،  
وهكذا أخذت البوذية تختفي في هدوء وسلام من الهند ، إبان خمسة قرون  
كانت خلالها نهياً لعوامل التدهور البطيء (\*) .

لكنها في ذلك الوقت نفسه كانت تكسب لنفسها كل ما عدا الهند من العالم  
الآسيوي تقريباً ، فانتشرت أفكارها وأدبها وفنها في سيلان وشبه جزيرة  
الملايو في الجنوب ، وفي التبت وتركستان في الشمال ، وفي بورما وسيام  
وكبوديا والصين وكوريا واليابان في الشرق ، وعلى هذا النحو امتصت كل  
هذه الأصقاع - ما عدا الشرق الأقصى - ما استطاعت امتصاصه وضممه  
من المدنيّة ، بنفس الطريقة التي امتصت بها أوروبا وروسيا الحضارة من  
الرهبان الرومانيين والبيزنطيين في العصور الوسطى ؛ فعظم هذه الأمم قد بلغ  
ذروة ثقافته بحافظ من البوذية ، ولقد لبثت « أنورا ذابورا » في سيلان منذ  
عهد أشوكا حتى انحلال البوذية في القرن التاسع ، لإحدى المدن الكبرى في  
العالم الشرقي ، وظل الناس هناك ألني عام يعبدون شجرة التين المقدسة عند

(\*) عدد البوذيين اليوم في الهند نفسها ثلاثة ملايين ، أي واحد في المائة من السكان .

البوذيين ، وكان المعبد القائم على قمة جبال كاندى كهبة يحج إليها مائة وخمسون مليوناً من البوذيين في آسيا\*).

ولعل البوذية في بورما أخلص ما بقي من ألوان البوذية من الشواثب المدخيلة وكثيراً ما يدنو رهبانها من المثل الأعلى الذى ضربه بوذا ؛ واستطاع أهل بورما البالغ عددهم ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس أن يبلغوا بفضل تعاليم أولئك الرهبان مستوى من العيش أعلى مما في الهند بدرجة ملحوظة<sup>(٧)</sup>؛ وكشف «سشن هيدن» و «أورل شتاين» و «پيلوت» من جوف الرمال في بلاد التركستان مئات من المحفوظات البوذية وغيرها من شواهد الثقافة التى ازدهرت هناك منذ عهد «كانشكا» حتى القرن الثالث عشر الميلادى .

وحدث في القرن السابع من تاريخنا المسيحى أن أقام المحارب المنور «سترونج - تسان جامبو» حكومة قادرة في التبت وضم إليها ينيال ، وبنى مدينة «لاسا» لتكون عاصمة له ، وهى لها طريق الغنى يجعلها محطاً وسطاً في التجارة بين الصين والهند ، ودعا طائفة من الرهبان البوذيين من الهند لينشروا البوذية والتعلم في شعبه ، وعندئذ ترك الحكم أربعة أعوام أنفقها في تعلم القراءة والكتابة ؛ فكأنما كان فاتحة عهد ذهبي في بلاد التبت ، فأقيمت آلاف الأديرة في الجبال وعلى النجد الفسيح ، ونُشر كتابٌ تشريعى يضم الكتب البوذية ، ويقع في ثلاثة وثلاثين وثمانمائة مجلد ، حفظت للعلم الحديث كثيراً من أحوال هذه الكتب التى كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل<sup>(٨)</sup> ، وهاهنا في هذه الصومعة التى أغلقت أبوابها دون العالم بأسره ، راحت البوذية تتطور في شبكة معقدة من الحرافات والرهبنة والكهنوت ، لا ينافسها في ذلك سوى

(\*) يحتوى كاندى على «تاب بوذا» المشهور - وطوله بوصتان ، وقطره بوصة - وهو محفوظ في وعاء من صلب الجواهر ، ومستور عن أعين الناس في حرص شديد ، وله موسم يحملونه فيه في موكب رصين يحتشد البوذيين من كل بقاع الشرق ، وعلى حدران المعبد تصاورير تمثل بوذا الوديع وهو يقتل الأشرار في جهنم ؛ وهكذا تدركنا حيوات العطاء كيف تتحول طبائعهم بعد موتهم تحولا ليس لهم يد فيه .

أوروبا في أوائل عصورها الوسطى : ولا يزال « دالاي لاما » ( أى الكاهن الشامل لكل شيء ) الذى اختفى في دير بوتالا العظيم الذى يطل على مدينة لاسا ، موضع عقيدة عند أهل التبت ، بما تنطوى عليه نفوسهم من السداجة الطيبة ، بأنه تجسيد حى « لبوذا المستقبل » ( بوذا المنتظر<sup>(٩)</sup> ) ؛ وفي كمبوديا والهند الصينية تعاونت البوذية مع الديانة الهندية في تخطيط الإطار الذى قامت عليه روائع الفن في عصر هو من أغنى العصور في تاريخ الفن الشرقى ؛ وهكذا ترى البوذية - مثل المسيحية - قد ظفرت بأعظم انتصاراتها خارج الأرض التى أنبتتها ، وإنما ظفرت بتلك الانتصارات دون أن تريق نقطة واحدة من دماء .

## الفصل الثانی

### الآلهة الجديدة

الديانة الهندية - براهما ، فنشو ، شيئا - كرشنا - كالى  
الآلهة الحيوانية - البقرة المقدسة - تعدد الآلهة والوحدانية

لم تكن الديانة الهندية التي حلت محل البوذية ديانة واحدة ، كلا  
ولا كانت مقتصرة على كونها عقيدة دينية ، بل كانت خليطاً من عقائد  
وطقوس لا يشترك القائمون بها في أكثر من أربع صفات ؛ فهم يعترفون  
بنظام الطبقات وبزعامة البراهمة ، وهم يقدمسون البقرة باعتبارها تمثل الألوهية  
على نحو تمتاز به من سواها ، وهم يقبلون قانون «كارما» وتناسخ الأرواح ،  
وهم يضيفون إلى آلهتهم الجديدة آلهة الفيدات ؛ ولقد كان بعض هذه العقائد  
أسبق من عبادة الطبيعة التي جاءت بها الفيدا ، كما ظلت قائمة بعد زوال تلك  
العبادة ، وأما بعضها الآخر فقد نشأ من أن البراهمة كانوا يغضون أبصارهم عن  
ضروب من الطقوس والآلهة والعقائد لم ينص عليها كتابهم المقدس ، بل تناقضه  
روح الفيدا مناقضة ليست باليسيرة ؛ فأتيحت الفرصة لتلك العقائد أن تنضج  
في وعاء الفكر الديني عند الهنود ، ومضت في نضجها ذلك حتى في الفترة  
العابرة التي ارتقت فيها البوذية إلى مكان السيادة العقلية في البلاد ؛

كان آلهة العقيدة الهندية يتميزون بكثرة أعضائهم الجسدية التي يمثلون بها  
على نحو غامض قدرتهم الخارقة في العلم والنشاط والقوة ؛ «فبراهما» الجديدة  
كان له أربعة وجوه ، وكان له «كارتكيا» ستة وجوه ، ولد «شيئا» ثلاثة  
أعين ولد «هندرا» ألف عين ، وكل إله عندهم تقريباً كان له أربع أذرع (١٠)  
وعلى وأس هذه المجموعة الجديدة من الآلهة «براهما» الذي كان له من الشهامة  
ما أبعده عن الميل مع الهوى ، وهو سيد الآلهة المعترف له بتلك السيادة ، على الرغم

من أنه مُهمَّسٌ\* في شعائر العبادة الفعلية إهمال الملك الدستوري في أوروبا الحديثة؛ و« براهما » و« شيفا » و« فشنو » هم الثلاثة الآلهة ( لا الثالوث ) الذين يسيطرون على الكون ، وأما « فشنو » فهو إله الحب الذي كثير آما<sup>١١١</sup> : إنساناً ليتقدم بالعون إلى بنى الإنسان ؛ وأعظم من يتجسد فيه « فشنو » هو « كيرشنا » ، وهو في صورته « الكرشنية » هذه ، قد ولد في سجن وأتى بكثير من أعاجيب البطولة والغرام ، وشفى الصم والعمى ، وعاون المصابين بداء البرص ، وذاد عن الفقراء ، وبعث الموتى من قبورهم ؛ وكان له تلميذ محبب إلى نفسه ، وهو « أرچونا » ، وأمام « أرچونا » تبدلت خيَلة « فشنو » حالا بعد حال ؛ ويزعم بعض الرواة أنه مات مطعوناً بسهم ، ويزعم آخرون أنه قُتل مصلوباً على شجرة ؛ وهبط إلى جهنم ثم صعد إلى السماء ، على أن يعود في اليوم الآخر ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم (١١) .

الحياة ، بل الكون كله ، لها في رأى الهندى ثلاثة وجوه رئيسية : الخلق ، والاحتفاظ بال مخلوق ، ثم القضاء ؛ ومن ثمَّ كان للأوهية عنده ثلاث صور : براهما الخالق ، وفشنو الحافظ . وشيفا المدمر ؛ تلك هى « الأشكال الثلاثة » التى يقدها الهنود أجمعين ما عدا الجائنتين منهم\* ) ، والناس منقسمون بحسبهم طائفتين : لإحداها تميل إلى ديانة فشنو ، والأخرى إلى ديانة شيفا ؛ وكلتا العقيدتين بمثابة الجارتين المسلماتين ، بل قد تتقدم كلتاها بالقرابين في معبد واحد(١٣) ، والحكام من البراهمة — تتبعهم الأكرية العظمى من سواد الناس — تكرم الإلهين معاً بغير تمييز لأحدهما ، أما الفشنديون الأتقياء فيرسمون

( \* ) في تعداد سنة ١٩٢١ ، ينقسم الناس من حيث دياناتهم كما يلي :

الديانة الهندوسية ٢١٦,٢٦١,٠٠٠ ؛ والسيخ ٣,١٣٩,٠٠٠ ؛ والجانتون ١,١٧٨,٠٠٠  
والجودية ١١,٥٧١,٠٠٠ (تقريباً كلهم من أهل بورما وسيلان) ؛ والرادشية (أو الفارسية)  
١٠٢,٠٠٠ ؛ والمسلمون ٦٨,٧٣٥,٠٠٠ ؛ واليهود ٢٢,٠٠٠ ؛ والمسيحيون ٤,٧٥٤,٠٠٠ ؛  
(أغلبهم أوروبيون) (١٢) .

على جباههم كل صباح بالطين الأحمر علامة فشنو ، وهي شوكة ذات أسنان ثلاث ، وأما الشيفيون المخلصون لعقيدتهم فيرمون ثلاثة خطوط أفقية على جباههم برماد من روث البقر ، أو يلبسون « اللنجا » - رمز عضو الذكورة - ويربطونه إلى أذرعهم أو يعلقونه حول أعناقهم (١٤) .

وعبادة « شيفا » هي من أقدم وأعمق وأبشع العناصر التي منها تتألف الديانة الهندية ؛ فيقدم لنا « سير چون مارشل » « دليلاً لا يأتيه الباطل » على أن عقيدة « شيفا » كانت موجودة في « موهنجو . دارو » ، متخذة أحياناً صورة شيفا ذي الرؤوس الثلاثة ، وأحياناً أخرى صورة أعمدة حجرية صغيرة ، يزعم لنا أنها ترمز لعضو الذكورة على نحو ما ترمز له عندهم بدائلها في العصر الحديث ؛ وهو يخلص من ذلك إلى نتيجة هي أن « العقيدة الشيفية أقدم عقيدة حية في العالم كله (١٥) » (\*) .

واسم الإله - أعنى كلمة « شيفا » - لفظة أريد بها التخفيف من بشاعة الإله ، فالكلمة شيفا معناها الحرني « العطوف » مع أن شيفا في حقيقة الأمر إله القسوة والتدمير قبل كل شيء آخر ؛ هو تجسيد لتلك القوة الكونية التي تعمل واحدة بعد أخرى ، على تخريب جميع الصور التي تنبئ فيها حقيقة الكون - جميع الخلايا الحية وجميع الكائنات العضوية ، وكل الأنواع ، وكل الأفكار وكل ما أبدعته يد الإنسان ، وكل الكواكب ، وكل شيء ؛ ولم يسبق الهنود شعب قط في شجاعتهم في مواجعة الحقيقة التي هي عدم ثبات الأشياء على صورها ووقوف الطبيعة من كل شيء موقف الحياد ، وواجهة صريحة ؛ ولم يسبقهم شعب قط في اعترافهم اعترافاً واضحاً بأن الشر يتوازن مع الخير ، والهدم

(\*) ومع ذلك فلا تجد اسم « شيفا » - كما لا تجد اسم براهما نفسه - في كتاب (رح-فيدا) ويذكر لنا « باناجالي » النحوى صوراً شيفية ومريدين شيعيين حوالي سنة ١٥٠ قبل الميلاد (١٦) .

يساير الخلاق خطوة خطوة ، وأن ولادة الأحياء بأسرها جريمة كبرى عقابها الموت ؛ فالهندي الذي تعذبه آلاف العوامل من عشرة الحظ والآلام ، يرى في تلك الألوان من التعذيب أثراً ينم عن قوة نشيطة يجمعها - فيما يظهر - أن تحطم كل ما أنتجه براهما ، وهو القوة الخالقة الطبيعية ؛ إن « شيئا » ليضطرب راقصاً إذا ما سمع نغمة العالم فأدرك منها عالماً لا ينى يتكون وينحل ويعود إلى التكون من جديد .

ولكن كما أن الموت عقوبة الولادة ، فكذلك الولادة تخيب لرجاء الموت ؛ فالإله نفسه الذي يرمز للتدمير ، يمثل كذلك للعقل الهندي تلك الدفعة الجارفة نحو التناسل الذي يتغلب على موت الفرد باستمرار الجنس ؛ وهذه الحيوية الخلاقة الناسلة (شاكتي) التي يبديها شيئا - أو الطبيعة - تتمثل في بعض جهات الهند ، وخصوصاً في البنغال ، في صورة زوجة شيئا ، واسمها « كالي » (بارفاتي ، أو أوما أو درجا) وهي موضع عبادة في عقيدة من لعقائد الكثيرة التي تأخذ بمذهب « الشاكتي » هذا ؛ ولقد كانت هذه العبادة - حتى القرن الماضي - وحشية الطقوس كثيراً ما تتضمن في شعائرها تضحية بشرية ، ولكن الإلهة اكتفت بعدئذ بضحايا الماعز (١٧) ؛ وهذه الإلهة صورتها عند عامة الناس شبح أسود بقم مقعور ولسان متدل ؛ تزدان بالأفاعى وترقص على جثة ميتة ؛ وأقراطها رجال موتى ، وعقدتها سلسلة من جماجم ، ووجهها وثدياها تلتطخها الدماء (١٨) ومن أيديها الأربعة يبدان تحملان سيفاً ورأساً مبتوراً ، وأما اليدان الأخريان فمدودتان رحمة وحماية ؛ لأن « كالي - بارفاتي » هي كذلك لإلهة الأمومة كما أنها عروس الدمار والموت ؛ وفي وسعها أن تكون رقيقة الحاشية كما في وسعها أن تكون قاسية ، وفي مقدورها أن تبسم كما في مقدورها أن تقتل ؛ ولعلها كانت ذات يوم إلهة أما في سومر ، ومن ثم جاءت إلى الهند قبل أن تتخذ هذا الجانب البشع من جانبها (١٩) ولا شك أنها هي وزوجها قد اتخذنا أبشع صورة ممكنة لكي يلقيا الرعب في نفوس الرعايد من

عبادها فيحتشموا ، أو قد تكون هذه البشاعة كماها قد أريد بها أن يلقي الرعب في نفوس العباد فيجودوا بالعطاء للكهنة (\*) .

تلك هي أعظم آلهة الهندوسيين ، لكننا لم نذكر إلا خمسة من ثلاثين مليوناً من الآلهة تزدهم بها مقبرة العظام في الهند ؛ ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مائة مجلد ؛ وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة ، وبعضها ] هو ما قد نسميه نحن بالشياطين ، وطائفة منها أجرام سماوية مثل الشمس ، وطائفة منها تتألم مثل « لاكشمى » ( الهة الحظ الحسن ) ، وكثير منها هي حيوانات الحقل أو طيور السماء ؛ فالهندي لا يرى فارقاً بعيداً بين الحيوان والإنسان ، فله حيوان روح كما للإنسان ، والأرواح تمضى دوماً متنقلة من بنى الإنسان إلى بنى الحيوان ، ثم تعود إلى بنى الإنسان مرة أخرى ؛ وكل هذه المصنوف الإلهية قد نسجت خيوطها في شبكة واحدة لا نهاية لحدودها ، هي « كارما » وتناسخ الأرواح ؛ فالفيل مثلاً قد أصبح الإله « جانيشا » واعتبره ابن شيفا (٢١) ، وفيه تتجسد طبيعة الإنسان الحيوانية ، وكانت صورته في الوقت نفسه تتخذ طلسماً يقي حامله من الحظ السيء ؛ كذلك كانت القردة والأفاعى مصدر رعب ، فكانت لذلك من طبيعة الآلهة ؛ فالأفعى التي تودى عضمة واحدة منها إلى موت سريع ، واسمها « ناجا » كان لها عندهم قدسية خاصة ؛ وترى الناس في كثير من أجزاء الهند يقيمون كل عام حفلاً دينياً تكريماً للأفاعى ، ويقدمون العطايا من اللبن والموز لأفاعى « الناجا » عند مداخلة بجورها (٢٢) ؛ كذلك أقيمت المعابد تمجيداً للأفاعى كما هي الحال في شرق ميسور ، وهناك في هذه المعابد تسكن جموع زاخرة من الزاحف ، ويقوم

(\*) ومع ذلك فكهنة العقيدة الشرقية يندر أن يكونوا من البراهمة ، ومعظم البراهمة ينظرون نظرة ازدراء وأسف إلى المذهب « الشاكتى » (٢٠) .

الكهنة على إطعامها والعناية بها (٢٣) ؛ وللمسيح والتمور والطواويس  
والبيغاوات ، بل والفئران حقها من العبادة (٢٤) .

وأكثر الحيوان قدسية عند الهندي هي البقرة ، فترى تماثيل الثيرة  
مصنوعة من كل مادة وفي شتى الأحجام ، تراها في المعابد والمنازل وميادين  
المدن ؛ وأما البقرة نفسها فأحب الكائنات الحية جميعاً إلى الهنود ، ولها مطلق  
الحرية في ارتياد الطرقات كيف شاءت ، وروثها يستخدم وقوداً أو مادة  
مقدسة يتبركون بها ، وبولها خمر مقدس يطهر كل ما في الجسم من نجاسة في  
الظاهر والباطن ؛ ولا يجوز للهندي تحت أى ظرف أن يأكل لحمها أو أن  
يصطنع من جلدها لباساً يرتديه - فلا يصنع منه غطاء للرأس ولا قفازاً  
ولا حذاء ؛ وإذا ماتت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية (٢٥) ، ولعل  
السياسة الحكيمة هي التي رسمت فيما مضى هذا التحريم احتفاظاً للزراعة  
بحيوان الجر حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون (٢٦) ، وقد بلغ عدد  
البقر اليوم ربع عدد السكان (٢٧) ووجهة نظر الهندي في ذلك هي أنه ليس  
أبعد عن المعقول أن تشعر بالحب العميق للبقرة والمقت الشديد لفكرة أكلها ،  
من أن تُكنّ أمثال هذه المشاعر للحيوانات المستأنسة من قطط وكلاب ، لكن  
الذي يبعث على السخرية المرة في الأمر هو عقيدة الراهبة بأن الأبقار لا يجوز  
ذبحها قط ، وأن الحشرات لا يحل لبداؤها قط ، وأن الأرامل من النساء ينبغي  
أن يحرقن أحياء ؛ فحقيقة الأمر هي أن عبادة الحيوان قد ظهرت في تاريخ  
الشعوب كلها ، فإن جاز للإنسان أن يوئله الحيوان إطلاقاً ، فللبقرة الرحيمة  
المادئة حقها في هذا التقديس ؛ ولا يجوز لنا أن نغلو في كبريائنا حين تأخذنا  
الدهشة لهذه المعارض الحيوانية من آلهة الهنود ، فلنا كذلك إبليس عدن في  
صورة الحية ، والثور الذهبي في العهد القديم من الإنجيل ، والسماك المقدس  
في سرايب الموتي ، وحمّل الله الوديع .

إن سر تعدد الآلهة هو عجز العقل الساذج عن التفكير فيما ليس

مشخصاً ، فأيسر عليه أن يفهم الأشخاص من أن يعقل القوي ، وأن يفهم الإيرادات من أن يتصور القوانين (٢٨) ، والظن عند الهندي هو أن حواسنا البشرية لا ترى من الحوادث التي تدركها سوى ظاهرها ، ويعتقد أن وراء هذه الظواهر كائنات روحية لا حصر لعدددها ، يمكن إدراكها بالعقل لا بالحواس — على حد تعبير « كانت » ؛ ولقد أدى تسامح البراهمة ذو المسحة الفلسفية ، إلى الزيادة من ذخيرة آلهتهم حتى ازدادت كثرة على كثرة ، وذلك أن الآلهة المحليين وآلهة القبائل المختلفة قد صادفت عند الهندي سهلاً ومرحياً ، فقبلها وفسرها بأنها جميعاً تصورات جوانب من آلهته الأصلية ؛ فكل عقيدة يُسمح لها بالدخول عندهم إن كان في استطاعها أن تدفع الضريبة على ذلك ، حتى كاد كل إله آخر الأمر أن يكون صورة أو صفة أو تجسداً لإله آخر ، ثم تناول العقل الهندي الرشيد كل هذه الآلهة فدمجها في إله واحد ، وهكذا تحول تعدد الآلهة إلى عقيدة بوحدة الوجود ، أو شككت عندهم أن تكون توحيداً ، والتوحيد بدوره أو شك أن يكون عندهم واحدية فلسفية ، فكما يتوجه المسيحي الورع بالدعاء إلى العذراء ، أو إلى قديس من آلاف القديسين ، ومع ذلك لا يتحول عن توحيدده لله ، بمعنى أنه لا يعترف إلا بإله واحد على أنه ذو الجلال الأسمى ، فكذلك الهندي يتوجه بالدعاء إلى « كالي » أو « راما » أو « كرشنا » أو « جانيشا » دون أن يتطرق إلى ذهنه لحظة واحدة أن هذه آلهة لها السيادة العليا (\*) فترى بعض الهنود يتخذ من « فشنو » إلهاً أعلى ، وبعضهم يتخذ من « شيفا » إلهاً أعلى ، ويجعل فشنو أحد ملائكته ، وإذا وجدت بين الهنود أقلية تعبد « براهما » فما ذلك إلا لأنه مجرد عن الشخص ، مجتمع على أحواس ، بعيد عن الشر ، ولهذا السبب عينه ترى معظم الكنائس في البلاد المسيحية قد أقيمت تكرماً للمارية أو لأحد القديسين ، وكان أهل المسيحية أن تنتظر حتى يجيئها قولتر فيقيم معبداً لله ،

(\*) فيما يلي عبارة مقتبسة من التقرير عن تعداد سنة ١٩١٠ ، المرفوع إلى الحكومة البريطانية في الهند : « إن النتيجة الدائمة التي انتهت إليها من البحث هي أن كثرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة في كائن واحد أعلى » (٢٩) .

## الفصل الثالث

### العقائد

كتب « بيورانا » - عودة الكون بالتمساخ مرة بعد مرة  
تقمص الروح في عدة أحساد - « كارما » - حوانها  
الفلسفية - الحياة باعتبارها شراً - الخلاص

ويعتزج بهذا اللاهوت المعقد ، مجموعة معقدة من الأساطير فيها التخريف  
وفيها عمق الفكرة في آن معاً ، فلما كانت كتب الثيدا قد دفنت في اللغة التي  
كتبت بها ، ثم لما كانت فلسفة البراهمة الميتافيزيقية تجاوز حدود أفهام الناس ،  
فقد نهض « قياسياس » وآخرون في مدة تطاولت إلى ألف عام ( من ٥٠٠ ق . م  
إلى ٥٠٠ ب . م ) وأنشأوا كتب « بيورانا » - ومعناها القصص القديمة -  
أنشأوها شعراً في أربعمئة ألف دوبيت ( الدوبيت بيتان من الشعر ) يعرضون  
فيها لعامة الناس حقيقة خلق العالم بصورتها الدقيقة ، وما يطرأ عليه من مراحل  
الكون والفساد المتعاقبة على فترات دورية ، ونسب الآلهة ، وتاريخ عصر  
البطولة ، وليست تدعى هذه الكتب لنفسها غالباً أدبياً ولا نظاماً منطقياً ،  
ولا اعتماداً في تقدير الأشياء بالأعداد ، من ذلك مثلاً أنها تذكر عن الحبيبين  
« لرافاشي » و « بورورافاس » أنهما قضيا واحداً وستين ألف عام في سرور  
وغبطة (٣٠) ؛ لكنها مع ذلك أصبحت للديانة الهندية إنجيلاً ثانياً لوضوح لغتها  
وروعة قصصها وسلامة العقيدة التي تشرحها ، كما أصبحت تلك الكتب للديانة  
الهندية مستودعاً عظيماً لخرافاتها وأساطيرها ، بل وفلسفتها ؛ فهناك على سبيل  
المثال قطعة من « فشنوپورانا » تعبر عن أقدم فكرة جالت برأس الهندي وما  
فنتت تعاوده على طول الزمن - وأعنى بها الفكرة القائلة بأن استقلال الأفراد  
في ذوات منفصل بعضها عن بعض ، وهم ، وأن الحياة كلها حقيقة واحدة -

« جاء » رهو « بعد ألف عام .

إلى « نداغا » في مدينته ليزيده عاماً .

فراه خارج المدينة .

في نفس اللحظة التي كان الملك فيها على وشك الدخول بحشد كبير  
من الأتباع ،

رآه واقفاً على مبعدة ، معتزلاً بنفسه عن الزحام ،

ذاوى العنق من أثر الصيام ، وكان في طريقه عائداً من الغابة ومعه  
بعض الوقود والكألاً

لما رآه « رهو » قصد إليه وحيّاه قائلاً :

« أيها البرهمي ! فيم وقوفك هاهنا وحيداً ؟ »

فقال « نداغا » : « انظرُ إلى الحشد تحيطاً بالملك

الذى يوشك أن يدخل المدينة ، هذا هو علة وقوفى وحيداً »

فقال « رهو » : « أى هؤلاء يكون الملك ؟

ومن عسى أن يكون الآخرون ؟

أنبئنى فيبدو عليك أنك بالأمر عليم »

فقال « نداغا » : « إن من يركب الفيل الأحمر ، عالياً برأسه كأنه

قمة الجبل

هذ هو الملك ، والآخرون هم تابعوه .

فقال « رهو » : « إنك تشير إلى هذين ، إلى الملك والفيل

دون أن تميز بينهما بفاصل

قل لى أين أجد للفاصل بين هذا وذاك ؟

أريد أن أعلم أى هذين هو الملك ، وأيهما يكون الفيل ؟ »

فقال « نداغا » : الفيل أسفل ، والملك من فوقه ،

من ذا الذى لا يعلم علاقة الحامل بالمحمول ؟ «  
فقال « رهو » : « علمنى ذلك فقد أستطيع تعلمه » ،  
ما هذا الذى تشير إليه بقولك « أسفل » وبقولك « فوقه » ؟  
فوثب نداغاً من فوره على المعلم وخاطبه قائلاً :  
« هأنذا أعلمك ما أردت أن تتعلمه منى ،  
أنا « أعلى » مثل الملك وأنت « أسفل » مثل الفيل ،  
وإنما أسوق لك هذا المثل لأعلمك »  
فقال رهو : « إذا كنت فى موضع الملك ، وأنا فى موضع الفيل  
فما أزال أطلب منك أن تنبئنى : أيننا أنت أيننا أنا ؟ »  
فما لبث نداغاً أن جثا أمامه وأمسك بقدميه وقال :  
حقاً إنك « رهو » أستاذى ...  
بجرايبك هذا عرفت أنك أنت شيخى قد أتى »  
فقال « رهو » : « نعم ، جئت لأعلمك  
لأنك فيما سبق أبديت استعداداً لخدمتى ،  
أنا هو « رهو » قد جئت إليك  
وهذا الذى علمتكم إياه اختصاراً —  
وهو صميم الحقيقة العليا — يتلخص فى نفي الثنائية من الوجود» (\*)  
وبعد أن فرغ الشيخ « رهو » من حديثه هذا مع نداغاً ، مضى لسبيله  
ومن ثم أدار نداغاً فكره — مهتدياً بهذا لدرس الرمزي الذى تعلمه —  
فركزه كله فى اللاثنائية

(\*) وعم يسمون عدم الثنائية بكلمة Advaitam ، وتمتيز هذه الكلمة مركز الفلاسفة  
الهندية كها ، وسنعود إلى ذلك فى فصل تال .

ومنذ ذلك الحين أخذ ينظر في الكائنات كلها فلا يجد فيها ما يفرق شيئاً منها عن نفسه

وهذا شاهد براهما ، وحقق الخلاص الأعظم (٣١) .

في كتب « بيورانا » هذه ، وفي أمثالها من آثار الهند في عصورها الوسطى ، تقرأ نظرية عن الكون هي بعينها النظرية التي يقول بها العصر الحديث ؛ فليس هناك خلق بمعنى التكوين بعد العدم ، إنما هو كون يعقبه فساد أبد الدهر ، هو نماء يعقبه ذبول ، دورة بعد دورة ؛ كهذا الذي تراه متمثلاً في كل نبات في العالم وكل حيوان ؛ والذي يحفظ مراحل هذه السيرة فلا تقف دورتها ، هو براهما - أو إن شئت فقل براچاپاتي كما يسمى الخالق في هذه الكتب التي نحن الآن بصدها - براهما هو القوة الروحية التي تفعل ذلك ، ولسنا ندرى كيف بدأ العالم ، إن كانت للعالم بداية ؛ يجوز أن يكون براهما - كما تذهب كتب بيورانا - قد جعل بداية العالم بيضة ثم احتضنها حتى أفرخت ؛ ويجوز أن يكون هذا العالم غلطة عابرة من الصانع ، أو فكاهة رأى فيها قليلاً من تسلية (٣٢) ؛ وكل دورة - أو كالمها كما يسمونها - في تاريخ الكون منقسمة إلى عصور كبرى - ويسمون كل عصر منها ماهايوجا - طول الواحد منها ٤,٣٢٠,٠٠٠ عام ، ثم ينقسم كل « ماهايوجا » إلى أربعة « يوجات » - أي عصور - يطراً على الجنس البشري خلالها تدهور تدريجي ؛ ولقد مضت ثلاثة أعصر من « الماهايوجا » - أي العصر الأعظم - الحاضر ، بلغ مداها ٣,٨٨٨,٨٨٨ عام ونحن الآن نعيش في العصر الرابع - ويسمونه « اليوجا الكالي - ومعناها عصر الشقاء ؛ ومن هذه المرحلة انسلخ ٥٠٣٥ عام ، وبقى منها ٤٢٦,٩٦٥ عام ، وعندئذ يصيب العالم موت من ميتاته الدورية ، بعدها يبدأ براهما يوماً آخر من « أيام براهما » وما يومه إلا « كالمها » أي دورة طولها ٤,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ عام ؛ وفي كل دورة « كالمية » من هذه الدورات يتطور الكون بفعل العوامل الطبيعية ماراً بالخطوات الطبيعية ، وبفعل العوامل

الطبيعية مارا بالخطوات الطبيعية يعود إلى الانحلال ، وفناء العالم كله لا يقل في قيمته عن موت فأر ، وليس فناء العالم كله في نظر الفيلسوف بأخطر من موت الفأر ، وليس هناك غاية نهائية يتحرك نحوها الكون ، أى ليس هناك « تقدم » بل كل ما هناك تكرر لا ينتهي (٣٣) .

وحدث إبان هذه العصور صُغرها وكُبرها أن تحولت بلايين الأنفس من نوع إلى نوع ومن جسم إلى جسم ومن حياة إلى حياة في دورات من التناسخ تبعث الملل لتكرارها ، فليس الفرد فرداً في حقيقة أمره ، وإنما هو حلقة في سلسلة الحياة ، وصفحة واحدة من تاريخ نفس من الأنفس ، والنوع من الأحياء ليس في حقيقة أمره نوعاً قائماً بذاته ، لأن الأنفس الحالة في هذه الزهور أو هذه البراغيث ربما كانت أمس ، أو ربما تكون غداً ، أرواحاً من أرواح البشر ، فالحياة كلها واحدة ، وإذن فالإنسان إن هو إلا إنسان إلى حد ما ، لأنه كذلك حيوان ، ولا تزال عالقة به نتف وأصداء من حيواته الدنيا الماضية ، مما يجعله أقرب صلة بالحيوان منه إلى الحكيم من الناس ، إن الإنسان جزء من الطبيعة لا أكثر ، فليس هو من هذه الطبيعة مركزها ولا سيدها (٣٤) ، والحياة الواحدة في الفرد ليست إلا فصلاً واحداً من سيرة نفس واحدة ، وليست هي كل ما تتألف منه هذه النفس ، فكل صورة من صور الأحياء مصيرها التغير ، أما الحقيقة فدائمة وواحدة ، والأبدان الكثيرة التي تحل فيها النفس واحداً بعد واحد ، شبيهة بالأعوام أو بالأيام في حياة الفرد الواحد ، وقد تعلقوا بالنفس نحو النماء حيناً أو قد تهبط بها نحو الدبول حيناً آخر ، فكيف يمكن حياة الفرد الواحد ، وهي على هذه الحالة من القيصّر في تيار الأجيال المتعاقبة العنيف الجارف ، كيف يمكن أن تشمل على كل ما للنفس الفردية من تاريخ ، أو أن تهبط لها ما هي جديرة به من

عقاب أو ثواب على شرّها أو خيرها ؟ وإذا فرضنا للنفس خلوداً ، فكيف يجوز حياة واحدة قصيرة أن تقرر مصيرها إلى الأبد(\*) ؟

يقول الهندي إن الحياة لا يمكن فهمها إلا على افتراض أن كل مرحلة من مراحل وجود النفس تعاني العذاب أو تتمتع بالثواب ، جزاء وفاقاً لما وقع من النفس في حياة ماضية من رذيلة أو فضيلة ؛ إذ يستحيل على فعل صغير أو كبير ، خير أو شرير ، أن يمضى بغير أثر ؛ إن كل شيء لا بد له من أثر يظهر ذات يوم ، ذلك هو قانون « كارما » — ومعناها قانون الفعل — أو قانون المسببية في دنيا الروح ، وهو أسنى قوانين العالم وأبشعها ، فإذا أقام إنسان العباد ، وكان رحيماً دون أن يقترف خطيئة ، فيستحيل أن يجيء جزاؤه في مرحلة واحدة فانية من مراحل الحياة ، بل يمتد نطاقه إلى حيوات أخرى يولد فيها ليكون ذا مكانة أعلى وحظ أوفر ، لو ظل على فضيلته الأولى ؛ أما إن عاش حياته عيش الرذيلة ، أعيدت ولادته في حياة تالية متبوذاً أو ابن عرس أو كلباً (٣٥)(\*\*) ، وقانون « كارما » هذا — مثل قانون القدر عند اليونان — هو فوق الآلهة والبشر معاً لأن الآلهة أنفسهم لا يستطيعون تغيير سنده التي يطرّد فعلها ؛ أو إن شئت فقل ما قاله رجال اللاهوت ، وهو أن « كارما » وإرادة الآلهة أو فعلها ، شيء واحد بذاته (٣٨) ، لكن ليس « كارما » و « القدر » بشيء واحد ، لأن « القدر » يتضمن عجز الإنسان عن تقرير مصير نفسه ، أما « كارما » فتجعل الإنسان (إذا أخذنا كل حيواته جملة واحدة) خالق مصير نفسه ؛ ليست اللجنة والجحيم بخاتمة ينتهي عندها فعل « كارما » وهو سلسلة الولادات والميتات ؛ نعم إن الروح بعد موت جسدها ، يجوز

(\*) إذا سئل الهندي : لماذا لا نتذكر ما مر بنفوسنا وهي في أبادتها السابقة ، أجب بأننا كذلك لا نذكر حوادث الطفولة الأولى ، فكما أننا لا نعلم مرحلة رشدنا إلا على أساس مرحلة الطفولة ، فكذلك لا يمكن تفسير موضعنا ونصبنا من هذه الحياة الحاضرة إلا على أساس حيوات النفس الماضية .

(\*\*) قد علل أحد الرهبان شهيته بأنه في حياة سابقة لروحه كان فيلا ، ثم نسي « كارما » أن ينير شهيته لما غير بدنه (٣٦) ، ويعتقدون أن المرأة ذات الرائحة القوية كانت فيها مضى سمكة (٣٧) .

أن ترسل إلى الجحيم لتأقي عذابها على جرم بعينه ، أو أن ترسل إلى الجنة لتنعيم  
بجزاء سريع على فضيلة بذاتها ، لكن يستجبل على روح أن يقيم في الجحيم ،  
وقليل من الأرواح هي التي يُسمح لها بالإقامة في الجنة إلى الأبد ؛ ذلك لأن  
الروح لا يهد لها بعد فترة تقضيها في الجنة أو الجحيم ، أن تعود إلى الأرض  
من جديد ، لتنفذ بحياة جديدة ما يقضى به عليها «كارما» (\*)

كان هذا المذهب صادقاً من الوجهة البيولوجية إلى حد كبير ، فلا ريب  
في أننا حقاً نجسيد جديد لأسلافنا ، وسنعود بدورنا فتجسد من جديد في  
أبنائنا ، وعيوب الآباء تهبط على الأبناء إلى حد ما (ولو أنها لا تهبط بالمقدار  
الذي يفرضه الجامدون الخيرون) حتى ولو بعد أجيال كثيرة ؛ فقد كان  
«كارما» أسطورة بارعة في صرف الحيوان البشري عن القتل والسرقه والماطلة  
والنقتير في العطايا ، فضلاً عن أنها وسّعت من نطاق الوحدة الخلقية والشعور  
بالواجب حتى شمل ذلك النطاق مراحل الحياة كلها ، ومهدت أمام التشريع  
الخلقى سبيل التطبيق على نطاق أوسع رقعة وأكثر منطقاً مما وجدته في أية حضارة

---

(\*) يعتقد الهنود في سبع سموات ، إحداها على الأرض ، وبقية ترتفع عن الأرض ،  
على تفاوت الدرجات بينها ؛ وهناك في عقيدتهم إحدى وعشرون جحيماً مقسمة سبعة أقسام ؛  
وليس العقاب أبدياً ، لكنه أنواع ؛ وإن الوصف الذي يصف به «الأب دبوا» جحيمات  
الهنود ، لينافس في بشاعته جحيم دافى ، وهو - مثله - يصور ما يضطرب به صدر الإنسانية  
من مخاوف كثيرة وخيال ينزع بالناس نحو إيقاع الأذى . «فن ألوان العذاب النار والحديد  
والثعابين والحشرات السامة والحيوانات الكاسرة وسباع الطير ، ومر الشراب والسم والروائح  
الكريهة ؛ واختصاراً ، تستخدم كل وسيلة ممكنة في تعذيب المعضوب عليهم ؛ بعضهم ينفذ في  
مناحيرهم جبل يظنون يساقون به إلى الأبد فوق نصال سكاكين غاية في الإرهاف وبعضهم يحكم  
عليهم بالمرور خلال سم الخياط ، وبعضهم يوضعون بين صخرتين مستويتين تضاهمهما فها فتسحقانهم  
دون أن تقتلاهم ؛ وبعضهم تطلق عليهم طيور العقاب الجائعة فتطل تقتر عيونهم بغير انقطاع ؛  
وملايين مهم يقضى عليهم بالسماحة الدائمة في بركة مليئة ببول الكلاب أو مخاط الآدميين» (٤٠) ،  
ويحوز أن تكون هذه العقائد قاصرة على أدنى طبقات الهنود وعلى المئزمتين من رجال اللاهوت ؛  
ويسهل علينا التسامح إذا تذكرنا أن جهنمنا - على اختلافها عن جهنم الهنود - ليست متنوعة  
العذاب فحسب ، بل هي أبدية فوق ذلك .

أخرى ، فالهنود الأخيار لا يقتلون الحشرات إذا وسعهم ذلك ، « وحتى أولئك الذين يتواضعون منهم في طمرحهم الخلقى يعاملون الحيوان معاملتهم لأخوة لهم أدنى شأنًا ، لا معاملتهم لكائنات أحط نومًا سلطهم الله عليها(١)» ، وقد فسرت « كارما » للهنود - من الوجهة الفلسفية - كثيرًا من الحقائق التي كانت تكون بغيرها غامضة المعنى أو مجحفة إجحافاً بوغر الصدور ، فهذه الفوارق الأزلية التي تفرق بين أقدار الناس والتي تخيب آمال الناس منذ الأزل في المساواة والعدل ، وهذه الشرور في صورها المختلفة التي تسود وجه الأرض وتصيب بحمرة الدماء مجرى التاريخ ؛ وهذه الآلام التي تدخل حياة الإنسان مع ولادته ثم تصاحبه حتى وفاته ؛ كل هذه وهذه وتلك بدت معقولة للهندي إذا ما اعتقد في « كارما » ؛ ذلك لأن هذه الشرور وهذا الظلم وهذه الفوارق المتدرجة من الخسب العتلى إلى النبوغ ، وهذه الدرجات من الفقر والغنى ، كل هذه نتيجة للحيات الماضية وهي نتيجة لازمة ترتب على فعل قانون ، إن رأيتَه ظالماً مدى حياة واحدة أو لحظة واحدة ، فستراه أعدل ما تكون القوانين في نهاية الأمر كله(\*) ، فكارما لإحدى الوسائل الكثيرة التي ابتكرها الإنسان لنفسه لتعينه على تحمل الشر صابراً ، وعلى مواجهة الحياة متفائلاً ، فالمهمة التي اضطلمت بها معظم الديانات وحاولت أدائها هي أن تفسر الشر وأن تشرح للناس نظاماً كونياً يبرر لهم أن يقبلوا الشر جزءاً منه ، قبولاً إلاّ يكن مليئاً بالبدِشُر ، فحسبه أن يكون مصحوباً بسكينة الفؤاد ، ولما كانت مشكلة الحياة الحقيقية ليست هي آلامها ، لكنها الآلام التي تصادف من لا يستحقونها ، فإن ديانة الهند تخفف من هذه المأساة البشرية بأن تخلع

(\*) الاعتقاد في « كارما » وفي التناسخ هو أعظم عقبة من الوجهة النظرية تحول دون نحو نظام الطبقات في الهند ، لأن الهدى المتمسك بهقيده يرى أن الفوارق الطبقية قد تقررت نتيجة لسلوك النفس في حياتها الماضية ، وأنها جزء من تدبير الله ، ومن الكفر أن تدبر فيما تدبر الله .

على الحزن والألم شيئاً من المعنى وقدرأ من القيمة ؛ فللروح -بناء على اللاهوت الهندى - هذا العزاء على الأقل ، وهو أنها لا بد لها أن تتحمل نتائج فعلها وحدها دون أفعال سواها ، فما لم تضجر الروح من الوجود كله جملة واحدة ، فستجد نفسها راضية عن الشر باعتباره عقاباً عابراً مؤقتاً ، وسترقب تحقيق آمالها فى ثوابها على ما أنت من فضيلة .

لكن الهنود فى حقيقة الأمر يرتابون فى قيمة الوجود كله جملة واحدة ، ذلك أنه لما كانت البيئة ترهق قواهم إرهاباً ، ولما كان الحاكم يذل قوميتهم ؛ ذلالاً ، ويستغل مواردهم استغلالاً ، فقد مالوا إلى النظر إلى الحياة على أنها عقوبة مرة أكثر منها فرصة سانحة أو ثواباً يرنجى ؛ فكتب المثيدا التى كتبها القوم وهم أشداء عند قدومهم من الشمال ، كانت فى تفاؤلها لا تقل عما يكتبه اليوم أديبنا « وتَمَسَنُ » ؛ ومضت خمسمائة عام ، وظهر بوذا من هؤلاء القوم أنفسهم ، لكنه أنكر قيمة الحياة ؛ ثم مضت خمسة قرون أخرى ؛ وطهرت كتب « بيورانا » فعبرت عن نظرة بلغت فى تشاؤمها حداً لم يبلغه مثسائم فى الغرب ، إذا استثنينا لحظات شروداً من الشك الفلسفى (\*) ؛ لقد تعذر على الشرق - حتى تناولته أطراف الثورة الصناعية - أن يفهم هذه الحماسة التى يقبل بها الغرب على الحياة ، ولم يجد إلا سناجة وطفولة فى مشاغلنا التى لا تعرف الرحمة ، ومطامعنا التى لا تنقح ، ووسائلنا التى تحطم الأعصاب وتوفر العمل ؛

(\*) أرجع شوبنهاور - مثل بوذا - كل آلام الحياة والنسل ، وبشر باننحار الجنس كله انتحاراً تكون وسيلته العقم فسطنمه اختياراً ؛ كذلك « هينى » لم يكذب يكتب مقطوعة واحدة من شعره دون أن يتحدث فيها عن الموت ؛ واسطاع أن يكتب فى روح هندية هذين السطرين :

النعاس حلو ، لكن الموت أحلى ،

وأحلى من كل حلو ألا يولد الإنسان أبداً

وازدرى « كانت » نفاؤل ليبنتز ، وكتب متسائلا : « هل يمكن لأى إنسان سليم العقل عاش من أعوامه ما يكون ليفهم ويتأمل فى قيمة الحياة البشرية ، هل يمكن لمثل هذا الإنسان أن يرضى أن تعاد عليه فصول الحياة فى روايتها الهزيلة ، لا أقول بنفس ظروفها التى شهدنا هو فى حياته ، بل بأى ظروف يشاء ؟ » (٤٣) .

وتقدمنا وسرعة سيرنا ؛ لم يفهم الشرق من الغرب هذا الانغراس العميق في سطوح الأشياء دون لبابها ، ولا هذا الرفض الماكر منه أن يواجه حقائق الوجود مواجهة صريحة ؛ لكن الغرب في الوقت نفسه لم يستطع أن يسير في الشرق التقليدي أغوار هذا السكون الهامد ، ولا هذا « الركود » و« اليأس » ؛ ألا إن الحرارة لا تفهم البرودة .

« ياما » يوجه السؤال إلى « يودشيرا » قائلاً : « ما أعجب شيء في العالم ؟ فيجيبه « يودشيرا » : « أن يموت الإنسان في إثر الإنسان ، وأن يرى الناس ذلك ثم يظلمون في سعيهم كأنهم من الخالدين » (٤٤) وجاء في « الماهاباراتا » : « للعالم مصاب بكارثة الموت ، ومقيد في نشاطه بالشيخوخة ، والليالي متتابعات ، تأتي ثم تمضي ، لا تتخلف أبداً ، فإذا ما أيقنت أن الموت يستحيل عليه الوقوف ، فإذا أرتجى من السير تحت غطاء من الحكمة » (٤٥) ، وتدعو « سيتا » في « رامايانا » لما رأت أن ثوابها على وفائها رغم ما يصادفها من إغراء ومحنة هو الموت ولا شيء غير الموت ، تدعو قائلة :

لو كنت بوفائي لزوجي قد برهنت على أني زوجة أمينة ؛

فيا أمنا الأرض أريحي ابنتك « سيتا » من أعباء هذه الحياة (٤٦) .

وهكذا ترى الكلمة الأخيرة في التفكير الديني عند الهنود هي ما يسمونه « فكشا » ومعناها الخلاص - الخلاص أولاً من الشهوة ، ثم الخلاص من الحياة ، والزرقانا هي هذا الخلاص أو ذاك ، لكنها لا تبلغ غاية أمدّها إلا إذا تحققت الخلاصان معاً ، ولقد عبر الحكيم « بهارتري - هاري » عن الخلاص الأول فقال :

« إن كل شيء على الأرض يبرر الخوف ، والطريق الوحيدة للخلاص من الخوف هي في إنكار الشهوات إنكاراً تاماً .. لقد مضى على عهد كانت تطول فيه أيامي حين كان سؤال الحسنة من الأغنياء يتمخّن في قلبي ألم الجراح ، ثم بدت أيامي قصيرة كل القصر حين جعلت أسعى نحو تحقيق كل رغباتي وغاياتي

الديوية ، أما الآن فقد تفلسفت وجلست على حجر صلب في كهف على سفح الجبل ، وترانى لا أتفك عن الضحك كلما فكرت في حياتي الماضية « (٤٧) .

ويعبر غاندى عن الصورة الثانية من صورتي الخلاص فيقول :

« لست أريد عودة إلى ولادة جديدة » (٤٨) إن أسمي وآخر ما يتمناه الهندي هو أن يتجوز من العودة إلى الحياة في جسد آخر . وأن تزول عنه هذه الحمى التي تلهب بها الذات كلما عاودتها الحياة في بدن جديد وولادة جديدة ؛ وليس طريق الخلاص إيماناً ، كلا ولا نتاجاً ، إنما طريق الخلاص إنكار للذات إنكاراً متصلاً ، ونفاذ بالبصيرة إلى الكل الذي يبتلع في جوفه الأجزاء ، حتى ينتهي الأمر بالنفس إلى الموت الذي يقنيها ولا يبقى منها ما يولد مرة أخرى ؛ وهكذا تتحول جسيم الفردية إلى سكينمة الاتحاد مع سائر الوجود وفردوسه المقيم ؛ هكذا تتحول الفردية إلى فناء تام في « براهما » الذي هو من العالم روحه أو قوته .

## الفصل الرابع

### غرائب الدين

الخرافات - النجم - عبادة العلاقة الجنسية -  
الطتوس - الضحية - التطهير - المياه المقدسة

في هذا الجوف اللاهوتي المفعم بالخوف والألم ، ازدهرت الخرافة - وهي أول معونة ترسلها القوة الكامنة فوق الطبيعة لتعالج بها الأدواء الصغرى في الحياة - ازدهاراً خصيباً ، حتى أصبحت القرابين ، والتمائم . وإخراج الشياطين الحالة في الأبدان ، والتنجم ، والنبوءة بالغيب ، والتعزيم ، والنذور ، وقراءة الكف ، والعرافة ، وطائفة الكهان التي بلغت ٢,٧٢٨,٨١٢ ، و « فاتحو البخت » الذين يبلغون المليون ، ومروضو الثعابين بالسحر وعددهم مائة ألف ، و « الفقراء » وهم مليون ، ومن يمارسون « اليوجا » وغيرهم من الأولياء - أصبح ذلك كله جانباً واحداً من الصورة التاريخية التي تمثل الهند ؛ فقد كان للهنود منذ ألف ومائتي عام عدد كبير من الكتب التي تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة وتذكر الصيغ السحرية التي تهيم السبليل لتحقيق أية غاية شئت ؛ وأما البراهمة فقد نظروا نظرة ازدراء صامتة إلى هذه الديانة التي يملؤها السحر ، واحتملوا وجودها لأنهم من جهة خشوا أن تكون الخرافة بين عامة الناس عاملاً ضرورياً لصيانة قوة البراهمة أنفسهم ، ولأنهم من جهة أخرى ربما ظنوا أن الخرافة يستحيل فناؤها ، فإن ماتت إحدى صورها ، فما ذلك إلا لكي تعود إلى الوجود في صورة أخرى ، وأحس البراهمة أن أقل الحكمة يقتضى ألا تقاوم مثل هذه القوة التي في وسعها أن تجسد نفسها في كل هذه الصورة .

اعتقد الهندي الساذج - كما يعتقد كثيرون من الأمريكان المثقفين - في

التنجيم ، وسلموا تسليماً بأن كل نجمة لها تأثير خاص على أولئك الذين ولدوا وهي في أوجها (٥٠) ، فالنساء إبان الحيض كنّ - مثل أوفيليا - يتقين ضوء الشمس ، فذلك قد يسبب لمن الحمل (٥١) ، وجاء كتاب «كاوشيتاكي يوبانشاد» أن سر النجاح المادى هو تقديس الهلال كلما ظهر ، وكان العرافون والسحرة والمنبثون بالغيب ، إذا ما أجرتهم أجراً زهيداً ، يعلنون لك ماضى الحوادث ومقتبلها بدراستهم للأكف أو للبراز ، أو للأحلام ، أو لعلامات في السماء ، أو للخروق التي أحدثتها الفئران في الثياب ، ويزعمون بترتيبهم لعبارات السحر التي لم يكن ترتيبها في مقدور أحد سواهم ، أنهم يخدمون الشياطين ويسحرون الثعابين ، ويستعبدون الطيور ، ويلزمون الآلهة أنفسهم بمعاونة من دفع لهم أجر ما يصنعون ، وكذلك كان السحرة نظير أجر معلوم سلطون الشيطان على العدو ، أو يطردونه من هذا الذى يؤجرهم ، كانوا ينزلون الموت المفاجيء على العدو أو يلحقوا به علة ليس لها شفاء ، حتى البراهمي إذا ما تشاءب ، جعل يفرقع بأصابعه ذات اليمين وذات الشمال حتى يطرد الأرواح الشريرة فلا يسمح لها بالدخول من فمه المفتوح (\*) ، وكان الهندى فى شتى عصوره - مثل كثيرين من الفلاحين الأوروبيين - يتمحوظ من عين الحسد ، فأعداؤه قد يستخدمون السحر فى أية لحظة شاءوا لينزلوا به نعاسة الحظ أو ليقضوا على حياته ، ويستطيع الساحر فوق هذا كله أن يجدد الحيوية الجنسية أو أن يخلق الحب فى أى إنسان لأى إنسان ، أو أن يهيئ سبيل الولادة للعاقرات من النساء (٥٢) .

لم يكن يعدل رغبة الهنود فى الأطفال شىء حتى النرفانا ، ومن ثم إلى حد ما كانت رغبة الهندى الشديدة فى القوة الجنسية ، وكان تقديسه الدينى للرموز التي تشير إلى النسل والخصوبة ، فعبادة العلاقة الجنسية التي سادت

(\*) وكذلك يتم الأوروبيون الأنقياء عبارات يستنزاون بها البركة عقب الغطاس ، والأصل فيها صيانة الروح حتى لا تخرج بقوة الرقيق .

معظم الأقطار في هذا العصر أو ذلك ، قد لبثت قائمة في الهند من العصور القديمة إلى القرن العشرين ؛ وكان إلهها هو شيفا ، ورمزها هو عضو التذكير ، وكتابتها المقدس هو « أجزاء من التانترا » ( ومعناها كتب للنصوص ) ؛ و« شاكتى » ( ومعناها القوة التي تبعث النشاط ) بالنسبة إلى شيفا هي — كما كانوا يتصورونها أحياناً — زوجته كالى ، وأحياناً أخرى يتصورون تلك القوة الباعثة شيفا على نشاطه الجنسي ، عنصراً تسوية في طبيعة شيفا نفسه ، وهذا تكون طبيعته مشتملة على قوتى الذكورة والأنوثة في آن معاً ؛ وهاتان القوتان يمثلهما الهنود بأوثان يطلقون عليها اسم « لنجا » أو « يونى » ، وهى تصور عضوى التناسل عند الرجل والمرأة<sup>(٥٣)</sup> وأينما سرت في الهند ألفت آثاراً لهذه العبادة للعلاقة الجنسية : تراها في التماثيل الرمزية لأعضاء التناسل في معبد نياليز ، وغيره من المعابد في بنارس ، وتراها في أوثان « اللنجا » الهائلة ننتى تزيّن أو تحيط بمعابد شيفا في الجنوب ، وتراها في المواكب والاحتفالات التي يرمزون بها إلى العملية الجنسية ؛ ثم تراها في تمائم ترمز إلى تلك العلاقة الجنسية أيضاً ، ويلبسونها على الذراع أو حول العنق ؛ بل قد تصادف أحجار « اللنجا » ملقاة في عرض الطريق ، ومن عادة الهنود أن يكسروا على هاتيك الأحجار جوز الهند الذى ينون تقديمه في قرابينهم<sup>(٥٤)</sup> ، وهم يغسلون حجر « اللنجا » في معبد « رامشقارام » كل يوم بماء الكنج ، ثم يباع ذلك فيما بعد للمتدينين<sup>(٥٥)</sup> كما كان يباع الماء المقدس في أوروبا ، وطقوس هذه العبادة الجنسية في العادة تكون بسيطة وملتزمة بحدود الاحتشام ، فقوامها أن يصب على الحجر ماء مقدس أو زيت مقدس ، ويزين بأوراق الشجر<sup>(٥٦)</sup>.

ولارىب في أن الطبقات الدنيا من الهنود تستمد بعض المتعة الداعرة من مواكب العلاقة الجنسية<sup>(٥٧)</sup> لكن الكثرة الغالبة من الناس — فيما يظهر — لا يجدون حافزاً إلى الفاحشة في « اللنجا » أو « اليورى » أكثر مما يجد المسيحيون.

مثل هذا الحافظ في تأملهم للعدراء وهي ترضع طفلها ، إن العادة تزيد الفحش عن أى شيء ، والزمن يخلع القداسة على أى شيء ، ويظهر أن الناس قد نسوا الرمزية الجنسية في هذه الأشياء منذ زمن طويل ، ولم تعد هذه الأوثان الآن إلا وسائل تقليدية مقدمة تمثل لهم قوة شيئاً (٥٨) ، ولعل الفرق بين تصور الأوروبي وتصور الهندي للأمر منشؤه الفارق بين سن الزواج في أوروبا وسن الزواج في الهند ، فالزواج المبكر ينفس عن تلك الدوافع الطبيعية التي إن طال أمد كبهجها ، دارت على نفسها وأنتجت إما دعارة وإما حباً عذرياً ، وعلى وجه الحملة تجرد الأخلاق والعادات الخاصة بالعلاقات الجنسية في الهند أعلى منها في أوروبا وأمريكا ، وهي هناك أكثر منها هنا احتشاماً وعفة بدرجة كبيرة ، وعبادة شيئاً هي من أكثر العبادات في الهند ترمماً وتقشفاً ، وأخلص عبادة « اللنجا » عقيده « هم « اللنجيات » ، وهم يمثلون أشد مذاهب الهند ترمماً وطهر (٥٩) ، يقول غاندى : « جاءنا أضيافنا الغربيون آخر الأمر يفتحون أعيننا لجوانب الفحش التي في طقوسنا ، بعد أن كنا نمارسها حتى عهدهم ممارسة بريئة ، لقد عرفت لأول مرة أن « شيئاً لنجم » ترمز إلى فاحشة ، من كتاب لمبشر مسيحي » (٦٠) .

إن استخدام المنود « للنجيا » و « اليونى » ليس إلا صورة واحدة من ألوف الصور في طقوسهم التي تبدو للعين العابرة الغربية عن البلاد ، لا مجرد صورة للديانة الهندية ، بل جزءاً أساسياً من صميم لبانها ؛ ذلك لأن كل فعل من أفعال الحياة ، حتى الغسل ولبس الثياب ، له عندهم طقوسه الدينية ، وفي كل دار يسكنها متدينون ترى آلهة خاصة بأهل تلك الدار ، تمثل لهم أشياء معينة كما ترى أسلافاً يضعونها موضع التكريم كل يوم ، والواقع أن الديانة للهندي واجب يؤدي في الدار أكثر مما يؤدي في مراسم المعابد التي يحتفظون بها لأيام الأعياد ؛ ومع ذلك فالناس يرحون مرحاً عظيماً في الأعياد الدينية الكثيرة التي تملأ السنة الكهنوتية ، فكانوا يسرون مواكب عظيمة أو أفواجاً من

الحجاج ، قاصدين إلى الأضرحة القديمة ؛ ولم يكونوا ليفهموا ما يقال من عبارات الصلاة في تلك المعابد ، لأنها كانت تقال بالسنسكريتية ، لكنهم كانوا يفهمون الأوثان ، فيزينونها بالخلى وبطلونها بالطلاء ويرصعونها بكرم الأحجار ؛ وكانوا أحياناً يعاملونها كأنها كائنات بشرية فيوقظونها ويغسلونها ويلبسونها الثياب ، ويطعمونها ويؤنّبونها وينمونها في مخادعها عند خاتمة النهار (٦١) .

وأعظم الطقوس الجماعية هي تقديم القرابين ، وأعظم الطقوس الخاصة الفردية هي التطهير ، فالقربان عند الهندي ليس مجرد صورة خاوية ، لأنه يعتقد أنه إذا لم يقدمه للآلهة طعاماً تموت جوعاً (٦٢) ولما كان الإنسان في مرحلة أكل اللحوم البشرية ، كانت القرابين في الهند كما في غيرها من بلاد العالم ضحية بشرية ؛ وكانت « كالي » تحب أن يكون قربانها رجالاً ، ثم فسر البراهمة هذا بأنها إنما تحب أن تأكل رجالاً من أهل الطبقات الدنيا وحدها (٦٣) (\*\*). فلما تقدمت الأخلاق أخذ الآلهة يكتفون بالحيوان قرباناً ، فكان الناس يضحون لهم بكثير منه : على أن الماعز كان ذات منزلة خاصة في هذه الاحتفالات ثم جاءت البوذية والجانتيكية و « أمهسا » فحرمت التضحية بالحيوان في بلاد الهندستان (٦٧) ثم عادت العادة مجراها القديم حين حلت الديانة الهندية محل البوذية ؛ وليت قائمة على نطاق يثير الدهشة باتساعه ، حتى يومنا هذا ، وإنه لمن حسنات البراهمة أنهم رفضوا أن يسهموا بنصيب في أية تضحية فيها إراقة للدماء (٦٨) .

وأما طقوس التطهير فقد كانت تستغرق من حياة الهندي ساعات كثيرة ؛ لأن مخاوف النجاسة كانت من الكثرة في الديانة الهندية كما هي في قواعد

(\*) يسجل التاريخ هذه البرابين البشرية حتى سنة ١٨٥٤ (٦٤) وكان المعتقد سابقاً أن المخلصين لدينهم كانوا يهدون أنفسهم قرابين ، مثل الذي يروى عن المتوسين الدينيين الذين كانوا يلقون بأنفسهم تحت عجلات « چبرنوت » (٦٥) ؛ لكن الرأي مجمع الآن على أن المخلجات النادرة التي حدثت فيها التضحية بالنفس كانت على الأرجح من قبيل المصادفات (٦٦) .

الصحة الحديثة ؛ فما أكثر ما قد يصاب الهندي بما يردّه نجساً - إن أكل طعاماً حراماً ، وإن لمس قمامة أو مس إنساناً من طبقة الشودرا ، أو منبوذاً أو جثة أو امرأة في فترة حيضها ، وغير ذلك مئات الحالات ؛ وبالطبع كانت المرأة نفسها ينتجسها حيضها أو وضعها وليدأ ؛ ولذا تطاب القانون البرهمي عزل المرأة في مثل هذه الحالات ، واشترط تحوطات صحية معقدة (٦٩) وبعد كل هذه النجاسات - أو احتمال العدوى على حد تعبيرنا الحديث - كان من واجب الهندي أن يؤدي طقوساً تطهيرية معينة ؛ فأما الحالات الصغرى فتكفيها طقوس بسيطة كأن يرش من أصابته النجاسة بالماء المقدس (٧٠) وأما الحالات الكبرى فلا بد لها من طرائق معقدة تباع أقصى مداها في بشاعة ما يسمونه « بانشاجافيا » وهو ضرب من التطهير كان يحكم به عقابا لمن انتهك قوانين الطبقات على خطورتها (مثال ذلك أن يغادر الهند) ويتألف ذلك التطهير من شرب مزيج فيه « خمسة عناصر » من البقرة المقدسة : اللبن ، والخثارة ، والسمن ، والبول ، والروث (٧١) (\*).

وأقرب من ذلك قليلا إلى ذوقنا ما يوجب عليهم دينهم من استحمام كل يوم ؛ فها هنا كذلك ترى تدبيراً صحيحاً تمس إليه الحاجة مسأ شديداً في مناخ شبه استوائي ؛ وترى هذا التدبير الصحي مصبوباً في قالب من الدين حتى يكون أقوى تأثيراً في النفوس ؛ ولهذا بذبت برك وأحواض « مقدسة » ، وجعلت أنهاراً كثيرة أنهاراً مقدسة ، وقيل للقوم لانهم إذا استحموا في هذه الأماكن تطهروا جسما وروحاً ؛ وقد كان ملايين الناس في أيام الرحالة « يوان شوانج » يستحمون في نهر الكنجج كل صباح (٧٢) ، ومنذ ذلك العهد إلى يومنا لم تشهد تلك الأمواه شروقاً للشمس دون أن تسمع صلوات المستحمنين الذين جاءوها

(\*) السمن هو زيد مصفى ، ويتول « الأب دبوا » ( ١٨٢٠ ) عن البول « إنه في نظرهم أفضل وسائل التطهير من أى ضرب من ضروب النجاسة ، فكثيراً ما شاهدت دنوداً ممن يؤمنون بالخرافة ، وهم يتبعون البقر إلى مرعاه ، ينتظرون اللحظة التي يستطيعون فيها الحصول على هذا السائل الثمين في أوعية من نحاس أصفر ، ويسرعون به إلى دورهم وهو ما يزال داثناً ، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه في حفصات أيديهم ، فيشربون بعضه ثم يمسحون وجوههم وروسهم ببقيته » (٧٢) .

سعيًا وراء الطهر والخلاص ، يرفعون أذرعهم نحو السماء المقدسة ، ويصبحون في نعمة الصابرين : « أوم ، أوم ، أوم » وأصبحت بنارس هي المدينة المقدسة للهند ، إذا باتت كعبة الملايين الحجاج ، يؤمها الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء ، جاءوا من كل أرجاء البلاد ليستحموا في النهر ، حتى يستقبلوا الموتى برآء من كل إثم أطهاراً من كل رجس ؛ إن الإنسان ليأخذه الخشوع ، بل يأخذه الفزع ، حين يتذكر أن أمثال هؤلاء الناس قد حجوا إلى بنارس مدى ألى عام ، وغمسوا أنفسهم في مياهها وهم يرتشون من لدعة البرد في فجر الشتاء ، وشموا بنفس متقززة لحم الموتى وهو يحترق ، فعلوا كل ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التي كان يقيهم أن تجاب ، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن ، وتوجهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التي لبثت على صمتها ، لكن عدم استجابة إله من الآلهة لا يحول دون تعلق القلوب به ؛ فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوة التي كانت تعتقد بها في أى عصر مضى في الآلهة الذين لبثوا كل هذا الزمن ينظرون إلى فقرها وبؤسها فلا تأخذهم من أجلها رحمة .

## الفصل الخامس

### القديسون والزاهدون

أساليب التقديس - الزنادقة - التسامح - نظرة عامة في ديانة الهنود

يظهر أن القديسين في الهند أكثر منهم في أى بلد آخر ، حتى ليشعر الزائر في تلك البلاد أنهم نتاج طبيعي لها كالحشخاش والشعبان ، وللقداسة في رأى المتدين الهندي ثلاث وسائل : الأولى طريق « چنانا - يوجا » أى طريق التأمل ، والثانية « كارما-يوجا » أى طريق العمل ، والثالثة « مهاكتي - يوجا » أى طريق الحب ؛ ولا يمانع للبرهمنى في أى من هذه الطرق الثلاث ، بما يقضى به قانون « الأشرامات » الأربع ، أى مراحل القداسة فعلى البرهمنى الناشئ أن يبدأ الطريق بأن يكون « براهما شارى » يقسم على صيانته لعفته قبل زواجه ، وعلى أن يلتزم التقوى ويواصل الدرس ، وأن يكون صادقاً ، خلدوماً « لشيخه » أى لأستاذه الذى يعلمه ، فإذا ما تزوج - ولا ينبغي أن يتأخر زواجه عن الثامنة عشرة من عمره - كان عليه أن يدخل المرحلة الثانية من الحياة البرهمنية ، وهى مرحلة « جريها ستا » أى رب الأسرة ، التى ينسل فيها الأبناء ليعبدوه ويعنوا به وبأسلافه ؛ وفى المرحلة الثالثة (وقلما يمارسها الآن أحد) ينسحب الطامع فى القداسة مع زوجته ليعيش كـ « فانا پراستا » أى ساكن الغابات ، فيقبل عُسُر الحياة مطمئناً راضياً ، ويحصر العلاقة الزوجية فى نسل الأطفال ، وأخيراً إذا أراد البرهمنى أن يبلغ أعلى المراحل ، كان له فى شيخوخته أن يهجر حتى زوجته ، فيصبح « ساناياسى » أى « الهاجر » للعالم ، مستغنياً عن كل أملاكه وكل أمواله وكل ما يربطه بغيره من علاقات ، فلا يحتفظ إلا بجلد وعل يغطى به جسده ، وعكازة يتوكأ عليها ، وقرعة ماء لظمئه ، ويجب عليه أن يلطخ جسده بالرماد كل يوم ، وأن يشرب « العناصر

الخمسة « مراراً متقاربة ، وأن يعيش معتمداً على صدقات المحسنين ، وتنص القاعدة البرهمية على أنه « لا بد أن ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، فلا يتأثر بأى شيء مما يحدث ، وأن تكون له القدرة على النظر إلى الأشياء نظرة هادئة لا يعرف هدوءها معنى الاضطراب ، حتى إن بلغ الأمر حد الثورات التي تثل العروش ؛ وغايته الوحيدة ينبغي أن تكون حصوله على ذلك القدر من الحكمة ومن الروحانية الذي يمكنه في نهاية الأمر من الاتحاد بالربوبية العليا ، تلك الربوبية التي تفصلنا عنها شهواتنا العاطفية وبيئتنا المادية (٧٤) (\*) .

وإنك لتصادف أحياناً وسط هذا التدين صوتاً شكاكاً يرتفع كصرير النشاز في نغمات الحياة الهندية التي تسودها استكانة التسليم ؛ لا شك أن الشكاك كانوا كثيرين حينما كانت الهند غنية ، لأن الإنسانية تزداد تشككاً في آلهتها ازدياداً يبلغ أقصاه في حالات ازدهارها المادي ، وتزداد لها تعبداً ازدياداً يبلغ غاية مداه حين يعمها البؤس ، وقد أسلفنا القول في فئة « شارفاكا » وغيرهم من زنادقة العصر البوذى ؛ وهنالك مؤلف يسارى في قيده ذلك العصر ، وهو يسمى - على طريقة الهنود في تطويل الأسماء - « شواسامشيدتيوپانشاد » الذي يبسط اللاهوت في أربع قضايا :

( ١ ) أن ليس هناك عودة للروح إلى تجسد جديد ، ولا إله ولا جنة ولا نار ولا عالم .

( ٢ ) وأن كل الكتب الدينية التقليدية من تأليف جماعة من الحمقى المغرورين .

( \* ) ويضيف إلى ذلك « دوا » الذي يرتاب في كل شيء إلا فيما يعتقد هو فيه : « أن أغلب هؤلاء الراهدين يطر إليهم على أهم نصابون ، وذلك هو ما يراه فيهم أكثر مواطنهم تنوراً » (٧٥) .

(٣) وأن ما يحكم الأشياء كلها هو « الطبيعة » التي تبدع ، و« الزمان » الذي يهدم ، وهما لا يأبهان بفضيلة أو برذيلة حين يقسمون بين الناس أنصبتهم من السعادة والشقاء .

(٤) وأن الناس تخدعهم حلاوة الكلام فيعتنقون الاعتقاد في الآلهة والمعابد والكهنة ، مع أنه في الواقع لا فرق بين فشنو وكتب (٦٧) :

وهناك قانون بوذى مكتوب باللغة البالية ، تراه يضم المتناقضات ، شأنه في ذلك شأن أى كتاب مقدس يحمى مصالحي الكهنوت ، وفي هذا القانون رسالة تستوقف النظر لعلها قديمة قدم المسيحية ، وتسمى « أسئلة الملك ميلندا » وفيها للمعلم البوذي « نجاسينا » يجيب إجابات جدمثيرة للأسئلة الدينية التي يوجهها إليه « الملك مناندر » الإغريقي الباكترى الذى حكم شمالى الهند في مستهل القرن الأول قبل المسيح ؛ يقول « نجاسينا » إن الدين لا ينبغي أن يتخذ مجرد وسيلة فرار يلوذ بها المعذبون ، بل يجب أن يكون سعى الزاهد حتى يبلغ مرحلة القداسة والحكمة دون أن يزعم وجود جنة أو إله ، لأن هذا القديس يؤكد لنا أنه لا وجود لجنّة أو إله (٧٧) .

وتهاجم ملحمة « المهاهارانا » هؤلاء الشكاك والملاحدة الذين - كما تزعم لنا - ينكرون حقيقة الأرواح ويحتقرون الخلود ، وهى تقول إن أمثال هؤلاء الناس « يضرّون في فجاج الأرض كلها » ؛ وهى تنذرهم بعقابهم المقبل ، ضاربة لهم مثلا ابن آوى الذى يعلل وجوده ووجود نوعه بقوله إنه كان في حياته الماضية « باحثاً عقلياً ، وناقداً لكتب الفيدا ... مهيناً للكهنة معارضاً لهم ... كافراً بكل شىء شكاكاً في كل شىء » (٧٨) ، ويشير « مهاجافاد - جيتا » إلى الزنادقة الذين ينكرون وجود الله ويصفون الدنيا بأنها « لاتزيد عن كونها منزلًا للشهوات » (٧٩) وكثيراً ما كان البراهمة أنفسهم شكاكين لأنفسهم كانوا يذهبون في الشك إلى غاية مداه بحيث لا يسمحون لأنفسهم أن يهاجوا عقيدة الناس ؛ وعلى الرغم من أن شعراء الهند بصفة عامة يتميزون بالورع الشديد

نرى بعضهم ، مثل « كابر » و « فيانا » يدافعون عن نوع من العقيدة في الله متحلل من كثير جداً من القيود ، فقد كتب « فيانا » - وهو شاعر ظهر في جنوبي الهند في القرن السابع عشر - بروح السخرية من الرهبان الزاهدين ومن حجاج المعابد ، ونظام الطبقات ، يقول :

« عزلة للكلب ، تأمل الكركي ، ترتيل الحمار ، استحمام الضفدعة » : : :  
 كيف تكون أحسن حالاً إذا لطخت جسمك بالرماد؟ إنه ينبغي أن تركز فكرك في الله وحده ، أما عن بقية ما تصنعه ، فالخمار في وسعه أن يتمرغ في الوسخ كما تفعل . . . إن كتب « الفيدا » أشبه ما تكون بالفاجرات اللاتي يحدعن الرجال وليس لهن أغوار تُسبّر ؛ وأما علم الله الخبيء فهو شبيه بالزوجة الشريفة . . . أيمكن لتلطّيح الجسم بالرماد الأبيض أن يذهب برائحة وعاء الخمر؟ أيمكن لحبل تلفه حول عنقك أن يجعل منك إنساناً آخر؟ . . . لماذا نرى واجباً علينا أن نسيء إلى طبقة الباريا إساءة لا تنقطع؟ أليس المنبوذ مثلنا في لحمه ودمه؟ ومن أي طبقة عسى أن يكون الإله الذي يحلّ جسده الباريا؟ . . . إن من يقول « إني لا أعلم شيئاً » هو أبلغ الناس حكمة (٨٠) ،

ولأنه لما يجدر ملاحظته في هذا الصدد أن تداع أقوال كهذه بغير مؤاخذه قائلها ، في مجتمع تتحكم في عقوله طبقة من الكهان ، فلو استئثنا كبح الحكم الأجنبي للهنود ( بل ربما جاز أن نقول إنه بسبب وجود الحكام الأجانب الذين لم يكونوا يابهون للعقائد الدينية الأهلية ) فقد تمتعت الهند بقدر من حرية الفكر أعظم جداً مما تمتعت به أوروبا في عصورها الوسطى ، وهي الفترة التي تقابلها مدينة الهند ، ولقد باشر البراهمة نفوذهم في تدبر ورفق ، وكان اعتمادهم في صيانة العقيدة الأصلية على الفقراء وما يتصفون به من جود على القديم ، وكان هؤلاء الفقراء في ذلك عند حسن ظن البراهمة بهم ، فإذا ما شاعت في الناس ضروب من الزندقة أو الآلهة الغريبة شيعاً يعد خطراً على العقيدة ، تسامح البراهمة إزاءها حتى يمتصوها امتصاصاً في ذلك الغور